قواعد تربوية

رمضان ١٤٤٤

تقديم

أنا هيد بنت عيد السمبري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

يوم الأربعاء 28 رمضان

(سورة الطلاق 8- 12)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله بمنه وكرمه أن يتمم علينا نعماءه، وأن يجعلنا من المقبولين، ممن صام هذا الشهر إيمانًا واحتسابًا وأقامه إيمانًا واحتسابًا، ووفق لقيام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا. نسأله -سبحانه وتعالى- وهو الذي أرسل الرسول، ونزل الكتاب، وشرع الشرع لتزكية الخلق، وأراد بهم كل خير، نسأله -سبحانه وتعالى- أن يفتح علينا أبواب الخير، وأن يكون هذا الشهر المبارك فيه لنا عظيم الخير، وأن نخرج منه متزودين بالخير، فنتقي سخط رب العالمين فيما نستقبل من حياتنا، ونطلب رضاه مع أنفاسنا. اللهم زدنا إيمانًا ويقينًا وتقوى، واجعلنا ممن عظم أمرك، اللهم اجعلنا ممن ربى نفسه وزكاها، اللهم اجعلنا ممن خافك واتقاك واتبع رضاك...اللهم آمين.

نقف اليوم على سورة عظيمة، شأنها عجيب، اسمها يدل على شأن خاص، وفي ضمن آياتها يجد المتأمل تربية، ويجد المتأمل قواعد تصلح لكل الحياة، فما أعظم كلام رب العالمين، من يقرؤه لا يفقد أبدًا أن يجد في كل آية ما يرشده إلى الحق ويجعله يميز الحق. نقف اليوم مع سورة الطلاق؛ السورة التي تعتني بالأسرة، تلك الأسرة التي يحب الله -عزَّ وجلَّ- أن تكون مقيمة لدين الله، مراعية لما أمر الله، راغبة فيما عند الله. الأسرة التي تتكون، على سنة الله، من الرجل والمرأة، وبما أوقع الله -عزَّ وجلَّ- في نفس الرجل وفي نفس المرأة من حاجات فطرية، تتكون هذه

الأسرة ويكون فيها المودة والرحمة، ويؤلف الله بين قلوبهم وتكون الأسرة محضن لأبناء يحب الله -عزَّ وجلَّ- أن يكونوا على دين الله، فتتوارث الأجيال الحق، وتتوارث الأجيال معرفة الله، وتتوارث الأجيال راية الصلاح والإصلاح. وهذا يجعل الأسرة أساس المجتمع، وصلاحها صلاح المجتمع، ومن هنا أتت الآيات حاضة على تكوين هذه الأسرة، وعلى صلاحها منهجًا كاملًا، حتى حين يحصل وتفترق هذه الأسرة، يأتي المنهج القرآني يجعل الافتراق حالة من الحالات التي فيها تقوى لله، وقرب لله، وحسن ظن بالله، ورغبة فيما عند الله، فيكون الزواج لله، ولأسرة تتكون من أجل امتثال أمر الله. فإذا قدر الله -وهذا من أقدار الله- أن تفترق هذه الأسرة، وكما أن الزواج شرع فالطلاق شرع، وكما أن الارتباط يكون على سنة الله، فالافتراق يكون على سنة الله، لذا نجد في هذه السورة أحكام كثيرة من الطلاق. لكن ممكن النفس لما لم تكن مطيعة، وربما وقع فيها ما وقع من شهوات، أو وقع فيها ما وقع من تكبر وعناد، والسورة مليئة بالتكاليف التي قد تحجم بعض الأنفس عن أن تقوم بها، لأن فيها حقوق، فربما أحجمت بعض الأنفس عن إيفاء هذه الحقوق إما تكاسلًا أو تقصيرًا، فرب العالمين رغب في الامتثال وكرر هذا بقوله -عزَّ وجلَّ- بتكرار هذا: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) ، (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) ، (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) هذه الأخبار أتت من الآية الثانية إلى الخامسة، تكرر الوعد من رب العالمين أن من يتقيه يجد خيرًا كثيرًا، (يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)، (يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)، (يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا).

وأتى وعد آخر (سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)، وهذا كله، وإن كان في السياق متصل بأمر الطلاق لكن نستطيع في كل موقف نكون فيه في حرج أن نتذكر هذه الآيات، فنربي أنفسنا على أن نتقي الله في كل

موقف. نفكر ما الذي يرضي الله؟ فنتبعه، ما الذي يسخط الله فنتقيه ونبتعد عنه، ومن فكر أن هذا يغضب الله فاتقاه فقد طلب رضا الله، فالتقوى حركة للقلب تتبعها حركة الجوارح ويتبعها القرارات ويتبعها الكلام، حركة ينتقل فيها الإنسان من التفكير ومن ثم القرارات، من التفكير في أمر يتبع فيه هواه إلى أمر يرضي الله، التقوى حركة تتحرك في النفس حين يكون الإنسان قد ربى نفسه، يتحرك القلب من موطن كان يفكر فيه أن يهمل حق الآخرين، أو أن يقهر الآخرين، أو أن يغيظ الآخرين، أو أن يمكر بالآخرين، سواء كان متمكن من ذلك، أو يفكر في طريقة يصل بها إلى هذا، فكأنه يريد أن ينتزع حق نفسه، أو يهمل حق غيره، فيتقي الله. بمعنى بعدما كان فؤاده يدور في ماذا أفعل لكي أغيظ أو أقهر فلانًا؟ ينتقل من ذلك إلى ما الذي أفعله لأرضي رب العالمين. فيتقي الله، يترك ما يمكنه أن يفعله، وهو لا يرضي الله، إلى طلب أسباب والقيام بأفعال ترضي الله. هذه الوعود من رب العالمين تزيد الإنسان إيمانًا، وتزيد الإنسان رغبًا فيما عند الله، (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) ، (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) ، (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا)، فرب العالمين يحب منا -عزَّ وجلَّ- أن نتمكن من أنفسنا. وأن نحركها إلى الجهة التي يريدها رب العالمين منا فرغبنا بذلك.

ثم أتى أيضًا التحذير، كما أتى ترغيب أتى تحذير، من أول آية أتى التحذير (وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) ثم في آخر الآية الثانية (ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) ثم بعدها (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) بعد أن كان هناك ترغيب (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) ، (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا)(سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)، وكان تحذيرًا من المخالفة (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ) من يتعد حدود الله يعني يترك

ما أمر الله فيتعداه (فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) فجمع مع الأحكام الترغيب والترهيب.

ثم يأتي الموطن الذي هو مقصدنا أن ننظر فيه ونرى كيف سنربي أنفسنا من خلال فهمنا لهذه الآيات. بعد نهاية سياق الكلام عن الطلاق والأحكام المتصلة به، أعقب الله ذلك بالكلام عن أمم أهلكها الله، أعقبها بتحذير عظيم من الوقوع في مخالفة أحكام الله، فنبدأ، نسمع من الآية الثامنة إلى نهاية السورة ثم نتناقش فيما يتيسر لنا من قواعد:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (8) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (9) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (10) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (11) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12))

هكذا ختمت هذه السورة العظيمة، التي هي سورة الطلاق، يتصور الإنسان أنها ستكون مجمعة لأحكام الطلاق، وهي كذلك! لكن العجيب أنها ختمت بالأخبار عن القرى التي (عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ) أتت الخاتمة تشير إلى عِظم العقوبة التي وقعت على قرى كثير، ماذا كان حال هذه القرى؟ خالفت بأحكام الله ورسله ولم تعتنِ بمراقبتها، ما علاقتها بالطلاق؟ إذا بدأت المخالفات في الأسرة، والأمر الصغير يثير الأمر الجليل، فرب العالمين يذكر المسلمين، وهم لم يعتوا عن أمر ربهم،

لكن يذكرهم بما حل بأقوام من عقاب عظيم لأنهم لم يعتنوا بأمر الله، لم يعتنوا بأمر الرسل. يحذرنا لأجل ألا نسلك سبيل التهاون بإقامة الشريعة، فيكون التهاون سببًا أن يلقى الإنسان هذا المصير، وأن يدخل إلى طريق الضلال، لا تستهن بأمر الله، احذر من الاستهانة بأمر الله، في صغير الأمر قبل كبيره، فالصغير يأتي بالكبير، والحقير يأتي بالجليل، أمور تستحقرها من الأخطاء والذنوب، ومن الظلم للخلق وعدم إعطائهم حقوقهم، تنتهي بأمور عظيمة من عقوبات الله بسبب أن الإنسان حين يترك هذا الصغير وهذا الصغير، وهذا الصغير، يجتمع عليه فيُغلق عليه بصيرته، فنجد رب العالمين يقول لنا: (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ) والمقصود هنا (وَكَأَيِّنْ) اسم لعد كثير مبهم، المقصود أن هذه قرى كثيرة، وهذا يدلنا على العذاب الذي نال أهل تلك القرى إنما حصل لجزائهم على عتوهم لأمر ربهم فلا تتوهم أن تلك القرية وتلك، وتلك الدولة وتلك المدينة حصل لها ما حصل مجرد مصادفة، أو مجرد تغييرات طبيعية كونية، أبدًا، بل هذا أمر مطرد في حكم الله، أن يحصل عتو فيحصل إهلاك، بل وهذا كثير، رب العالمين يخبرنا بكثرة هذا الأمر.

ماذا فعل رب العالمين لما عتوا؟ أولًا ما معنى أنهم عتوا؟ "العتو" هو تجاوز الحد في الاستكبار والعناد، وهؤلاء عتوا عن أمر ربهم، نفهم من (عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا) أنهم أعرضوا عن أمر الله، وتجاوزا الحد في الاستكبار، وهذا بدأ من الأمور الصغيرة حتى انتهوا بالأمور الكبيرة، وهذا الذي نريد أن يتبين لنا، وأن نتبصر فيه، **ظلم، تقصير في حق الآخرين، تقصير في حق الله، في أمور صغيرة، هذا يجتمع على القلب ويعمي البصيرة وتكون النتيجة أن يستكبر الإنسان ويعاند في أمر أكبر وأكبر في حقوق الله -عزَّ وجلَّ- إلى أن يصل إلى العتو.**

ماذا فعل الله -عزَّ وجلَّ- في هؤلاء الذين عتوا عن أمر ربهم ورسل ربهم؟ (فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا) جازاها الله -عزَّ وجلَّ- على عتوها جزاءً عظيمًا ذهب بها، وكسر شوكتها، وأذهب طغيانها.

(وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا) العذاب النكر هو عذاب الاستئصال سواء غرقوا أو حصل لهم خسف أو حصل لهم رجم، أو غير ذلك.

إذًا حصل لهم أمرين؛ أن الله حاسبهم حسابًا شديدًا وأنه عذبهم هذا العذاب. وهذا كله يجعل المؤمن يلاحظ ويخاف من خطوات الشيطان؛ لأن رب العالمين لما عطف العذاب على الحساب عرفنا أنها أمرين؛ الله أعلم أن الحساب في أمور لقوها قبل الاستئصال، من الأمور المخيفة مثل قحط، وباء، غلاء. هذا قبل أن يأتيهم الاستئصال، والعذاب النكر هو الذي محاهم تمامًا بعد ذلك.

وربما يكون المعنى أيضًا: (فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا) على أنه سيكون في الآخرة، والله أعلم، لكن لو أخذنا بالمعنى الأول سيكون المعنى واضح في واقعنا، الحساب الشديد، نعمة الصحة، نعمة توفر الطب، نعم كثيرة ما شُكِرت إنما اتُّخِذت سبيلًا، والعياذ بالله، عند أهل الكفر لزيادة الكفر والطغيان، فيأتي الله لهم بالوباء. أموال جعلها الله بين أيدي الخلق وأقدرهم على أمور لم يقدر عليها من قبلهم، فعتوا عن أمر ربهم فحاسبهم حسابًا شديدًا؛ فغلت أسعارهم، وكثرت ديونهم، وكل زمن يأتي عليهم فيمرون بضوائق يشتركون في أثرها، فهذا كله من الحساب الشديد، ثم -نعوذ بالله- يأتي بعده العذاب.

فيقول عزَّ وجلَّ: (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا) شعرت بوبال أمرها. وهنا يوجد تشبيه لطيف في داخل هذه الآية، الوبيل صفة مشبهة، يقال وُبِل المرعى إذا كان كلأه وخيمًا ضارًا لمن يرعاه. أصل الكلمة وصف للمراعي التي

تكون فيها البهائم، بمعنى أن المرعى إذا كان الكلأ فيه والأعشاب وخيمة ضارة، وأكلتها البهيمة تضررت منها، فيكون هذا الشأن في البهائم. فهؤلاء ذاقوا، كأنهم أكلوا هذا الكلأ الذي كان وخيمًا ضارًا، فأذهب بهم. (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا) ذاقوا الوبال الذي تسبب لهم فيه أمرهم وشأنهم الذي كانوا عليه من الاستهانة بأمر الله، ومن ثم عدم تعظيم أمر الله، ومن ثم عدم تقوى الله.

تصور أن هذه الأخبار تأتي بعد الكلام عن الأسرة والطلاق والتعامل بين الرجل والمرأة، وأمور دقيقة جدًا، مهما أتى أحد يحكم في مثل هذه الأمور، كل يدعي أنه مظلوم، وكل يدعي أن حقه مهضوم، والله مطلع على دقائق الأمور، والأمر في مثل هذه العلاقات لا يحتمل إلا أن يتقي الإنسان ربه، ولا يخاف من شريكه في الأمر، أن يطلع على قلبه أو أن يكشف حيلته أو مكره، بل يخاف من ربه، أنه حين يتعدى أمر ربه ويسيء ظنه في شريك حياته، أو يمكر به أو يخدعه أو يهينه أو يقلل من قيمته أو يتسلط عليه، أي نوع من أنواع التعدي سواء كان صغيرًا أو كبيرًا، فليتذكر الطرفين: (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (8) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا) فهنا تأتي النصيحة للنساء اللاتي قد يتعرضن للتحريض، أو اللاتي يشار عليهن بأمور، تظن أنها بهذا الأمر تحفظ زوجها أو تمنعه من أن يلتفت لغيرها، فتتسلط على ماله، أو تتسلط على حاله، وكل هذا وفي داخلها قد نسيت مراقبة الله، ولم تشتغل بتقوى الله، وما خافت الله، فلأي سبب كان وجدت نفسها قوية، ربما قوة بسبب مال، أو قوة بسبب حب الزوج، أو احترام الزوج، أو قوة بسبب قوانين تفرض لصالحها...مسكينة! تظن أن هذا كله يحميها من عقوبة الله، ولا تدري أنها تذوق وبال أمرها.

وهذا التذكير للطرفين، وهنا نحن نخص المرأة لأن هذا الزمان، خاصة مع كثرة الكلام عن حقوق المرأة، وكثرة الكلام عما يتبع ذلك من حركات نسوية وغيرها، ربما تأثرت المرأة المسلمة، وهي المرأة التي تخاف ربها؛ تقوم بفرضها، وتصوم شهرها، وتعمل الأعمال التي تعرف أنها تقربها إلى ربها. لكن حين يكون الجو العام فيه مثل هذه المداولات، ربما حصل في نفس المرأة ما حصل من رغبة في التمكن، ورغبة في مجاراة الأحوال، ربما دخلت هذه الأفكار والإنسان لا يشعر بنفسه، فلنقرأ سورة الطلاق ونرى خاتمتها ونعطي كل أحد حقه.

ونكرر أن هذا الخطاب للطرفين؛ لكل من عنده حق لغيره فيحبسه مكرًا وخداعًا، أو يحبسه تهاونًا، أو يحبسه غيظًا وقهرًا في الطرف الثاني، ويعتبر أن هذه شؤون تخصه وأنه بهذا لا يكون قد خالف أمر الله، ولا يكون قد عرض نفسه لعقوبة الله، نقول: (لا والله! الإنسان بهذا يكون معرض نفسه لعقوبة الله) والحق يبقى حقًا والباطل يبقى باطلًا مهما قال الناس خلاف ذلك، ومهما حاول الناس أن يغيروا هذه الصورة. المرأة تحاول اليوم أن تتقوى وتتمكن على الرجل، والرجل يرى فريقًا من النساء بهذه الصورة، فينسى الحقوق ويتعدى على المرأة. وهكذا نجد المجتمع تنقلب فيه الحقائق بهذه الصورة، لو كل طرف من أطراف المعركة تأدب وعرف أن الحياة ليست معركة، بل الحياة فرصة للتقرب إلى الله، والحياة وما فيها من أحداث وأقدار إنما هي اختبارات وابتلاءات، فإذا تأدب الإنسان بالأدب الذي شرعه الله، مهما كان حال الطرف الآخر من عدم التأدب، فإن المتأدب هو الرابح على الله. والذي يسيء الأدب مع الله سيذوق وبال أمره، فلنتقِ الله ونقوم بما أمرنا الله، ونبتعد عما نهانا رب العالمين ونحن في ذلك خائفين غاية الخوف منه سبحانه وتعالى.

ونكرر أن اختلاف أفكار الناس، اختلاف أفكار المرأة اليوم، اختلاف أفكار الرجل اليوم عن المرأة، ومحاولة المرأة للتمكن من الرجل، والصد الحاصل من الرجل للمرأة، يراها تعدت فيتعدى عليها، هذا سواء كان في الأسرة أو في المجتمع، حين يقول الرجل: (زمان كانت المرأة محترمة، زمان المرأة كان لها حدوها أما اليوم تغير الأمر) هذا لا يجدي عند الله شيئًا، حين تحترم الحقوق تحترمها لأن الله حدها، ليس لأن الناس كل يوم يغيرون في حدودهم فتتحرك مع تغييرهم، (وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ)، ما ظلم غيره، بل ظلم نفسه.

انظر كيف نبهنا رب العالمين في نهاية سورة الطلاق هذا التنبيه، أن هناك قرى عتت عن أمر ربها، ما علاقتها بالأسرة؟ والطلاق والاختلاف؟ هذه نقاط البداية، وكل أمر تظنه صغيرًا أو حقيرًا يكبر ويعظم ويصل إلى أن تعمى البصيرة، ويسقط الإنسان في أمور تسبب غضب الله -عزَّ وجلَّ- عليه.

(فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا) عاقبة أمرها يعني عاقبة حالها وشأنها، يعني آخرها، إلى ماذا سيصل في النهاية؟ سيصل إلى الخسارة، شبه الله عاقبتهم السيئة بخسارة التاجر في بيعه، لما عتوا على أمر الله وتعدوا حدود الله، وضعوا من عندهم حدودًا وغيروا صورة العالم، وغيروا وضع المرأة، وغيروا وضع الرجل، والمعركة قائمة وكل يوم تحصل حركة من هذا الطرف لهذا الطرف، لما عتوا حسبوا أنهم أرضوا أنفسهم بإعراضهم عما أمر الله وعما جاءت به الرسل، ويحسبون أنهم انتصروا على دين الله، فما لبثوا أن صاروا بمذلة وخسروا كما يخسر التاجر الذي يريد الربح في تجارته؛ لذلك (وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (9) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا) "عاقبة أمرها خسرًا" كيف نفهمها؟ أن الله أعد لهم عذابًا شديدًا.

أمام هذا الأمر كله رب العالمين يخاطب أهل الإيمان، يقول لهم: (فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) بعد كل ما مر من عند (وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) في أول آية في السورة، إلى أن نصل (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ) رب العالمين ينادي المؤمنين يقول لهم: (فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) ووصف أهل الإيمان أنهم أولي الألباب، أصحاب العقول الراجحة لأن من عقله راجح لا بد أن يتقي الله، تقوى الله تدل على كمال النفس وعلى فطنتها، لأن الإنسان يفكر أن الملك ملك الله، والأمر أمر الله، ومن سيحاسبنا هو الله، كيف نخالف أمر الله ونحن في ملك الله وهو يملك أمرنا، وهو سيحاسبنا، كيف سنخالفه ولا نخاف منه؟ إذا لن أتقي سخط مالك الملك، الذي يصرِّف الأمور، سأتقي سخط من؟ سأتّبع أمر من؟ لكن لأن الإيمان هو الذي يجلِّي هذه الحقيقة، كان الخطاب لأهل الإيمان، هم أولو الألباب، الإيمان يجعل الإنسان يعرف أن الأمر بيد الله، لكن إذا الإيمان تابع الواقع الملموس وترك الغيب المشهود عند أهل الإيمان الذين يقولون: (نشهد أن لا إله إلا الله) عند أهل الإيمان (لا إله إلا الله) في حكم الشهادة وليست في حكم الغيب، لذلك هم أولو الألباب، في مقابل أن ضعفاء الإيمان، والمنافقين، ومن ثم الكفار والمشركين، الإيمان بالله عندهم أمر غائب، الله وعظمته وجلاله أمر غائب؛ لذلك عقولهم لا يمكن أن تكون راجحة، لا تعرف ماذا تتقي، تتقي الشيء المشاهد أمامها (فَاتَّقُوا اللَّهَ) يا أصحاب العقول الراجحة، عقولكم اكتملت وأصبحتم من أولي الألباب لأنكم آمنتم بالله، لأن المؤمن يعرف فوائد التقوى التي بها اجتناب المضار في الدنيا والآخرة، لأنه يعرف أن الأمر كله بيد الله.

هذا المؤمن الذي يتذكر (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)[1] هؤلاء مؤمنون بالحقائق،

[1]() يونس: 62-63.

مؤمنون أن الأمر بيد الله، وكما مر معنا في هذه السورة العظيمة؛ (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) ، (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) ، (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) ، (سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)، وهو مؤمن بهذه الحقائق، والناس ترى العسر وتقول: (لا يوجد يسر) وهو يقول: (لا والله، إن اليسر قريب) هم يقولون له: (ستهلك) وهو يقول: (سأقوم بما يجب علي وسأتقي الله، ويجعل لي ربي مخرجًا) فيرزقه الله من حيث لا يحتسب. هذا المؤمن، هو صاحب اللب، مهما أشار الناس إليه أنك مجنون ولا تعرف كيف تتصرف كما ينبغي، كيف تعطيه كذا؟ وكيف تسلمه كذا؟ وهذا كثير ما يحصل في المشاكل بين الرجال والنساء في الأسر، وحين يحصل الطلاق يتحول الأمر إلى بيئة للمكر والخداع ومحاولة نزع شيء فوق الحقوق من الطرف الآخر، وإذا لم يستطيع أن ينزع حقوق مادية، يأتي إلى الأمور المعنوية، فيتسلطوا على الأبناء ويمنعوهم من رضا الطرف الثاني، ويربوهم على كراهية بعض، وربما حرضوهم على أهليهم وكل هذا بدون أن يكون هناك تقوى وخوف من الله. فإذا أحسنت المرأة أو أحسن الرجل في التعامل وقام بما يجب عليه والطرف الثاني يكيد، ويغيظ ويفعل، قالوا للطرف المحسن: (لم تفعل هذا أغظهم كما يغيظوك واقهرهم كما يقهرونك) وهو يقول: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) هذا صاحب العقل الراجح، آمن بالله وعرف أنه اختبار فتصرف كما يحب الله، عرف أن الأمر بيد الله اتقى الله وعرف أن الله -عزَّ وجلَّ- إذا عاقب هؤلاء أهلكهم، كانت عاقبة أمر هؤلاء خسارة.

رب العالمين يخاطبنا بعد كل هذه الأخبار (الَّذِينَ آمَنُوا) هم هؤلاء أولوا الألباب. الذين آمنوا بدل من أولي الألباب، فالإيمان هو سبب رجاحة العقول، كل من يزيد إيمانًا يزيد عقلًا، فيرشد في المواقف

والتصرفات فتكون نفسه راضية، ليس فقط أن الله يرشده إلى التصرف السليم بعد أن يفكر ويفكر في تقوى رب العالمين، وهو يأخذ -بإذن الله- أجر على تفكيره برضا رب العالمين، هذا التفكير الذي يجول في القلب موطن من مواطن الأجر للمؤمن؛ ما الذي يرضيك يا رب العالمين؟ أنا أريد أن أفعل ما يرضيك، ويدعو ويقول "أنتَ تحكُمُ بينَ عبادِكَ فيما كانوا فيهِ يختلِفونَ اهدِني لما اختُلِفَ فيهِ منَ الحقِّ بإذنِكَ"[2] ويرجو، ويرجو، فيرشده رب العالمين ويجعله يفعل هذه الأفعال من رضا. فسبحان رب العالمين كم للإيمان من مصالح، كم يفعل الإيمان في نفوس أهل الإيمان فيجعلهم في سمو حقيقي. فالإيمان سبب للتقوى، الإيمان سبب لرجاحة العقل، الإيمان سبب لسلامة النفس، لكن الإيمان له درجات، ومن ثم التقوى ورجاحة العقل يكون لها درجات.

يقول عزَّ وجلَّ: (قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا) كأنه يقال أنتم أمرتم بالتقوى، لأن الله أنزل الكتاب الذي فيه نفع عظيم، كتاب يستحق منكم الشكر له، وشكره يكون بتربية أنفسكم عليه وتهذيبها، وتأديبها به، وهذه هي حقيقة التقوى، التقوى ليست رأي لفلان أو علان، ما الذي يرضي رب العالمين ليست رأيًا لفلان أو علان، ما الذي يسخط رب العالمين ليست رأيًا لفلان وعلان، إنما هو إقبال على الكتاب، وتعلم منه، ودراسة فيه، فنلاحظ (قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا) "قد" تأكيد للخبر من أجل أن نهتم بهذا الكتاب، ومن أجل أن تنبعث نفوسنا لتعلمه، وسيعود الأمر مرة أخرى، من أين نأتي بالإيمان؟ من أين نصل إلى رجاحة العقل؟ كيف نكون من أهل التقوى؟ سنرجع إلى العلم وطلبه، نرجع إلى الإقبال على القرآن والانتفاع به، نرجع مرة أخرى إلى هذا الذكر العظيم، القرآن سماه ربنا بالذكر لأنه يتضمن تذكير الناس بما هم في غفلة عنه من دلائل التوحيد والإيمان وما

---

[2] () أخرجه مسلم (770).

ينتج عن ذلك من حسن تأدب وسلوك في الحياة، ويتفرع على الإيمان الخلق الحسن والأدب الجم، وحتى التراجع عن الخطأ، يمكن أن يكون الإنسان في أدب جم، وفي خلق حسن، لكن لا يمكن أن يكون مثاليًا، لا بد أن تأتي الفلتات والأخطاء، فالقرآن كما يهذب النفوس، ويرشدها إلى الطريق المستقيم، يرشدها إذا أخطأت ماذا تفعل، وهكذا أمر عظيم، علم عظيم، ذكر يذكر الإنسان بما فيه مصلحة له.

يقول رب العالمين: (قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (10) رَسُولًا) رسولًا هنا بدل من ذكر، لأن بين القرآن والرسول ﷺ ملازمة، ولو تكلمنا عن الأخلاق فسنجد أن النبي ﷺ كان خلقه القرآن، فإذا أردت أن تتذكر ما في القرآن فانظر إلى سيرة المصطفى ﷺ. الرسول ﷺ يذكرنا بما يجب أن نكون عليه من استقامة، هذا الرسول الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، (يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) أليس القرآن نزل لكل الناس؟ بلى، لكن المنتفعين على الحقيقة، الذين يخرجون من الظلمات إلى النور، على الحقيقة، هم أهل الإيمان. القرآن نزل لجميع الناس لكن أهل الإيمان خرجوا بالقرآن من ظلمات الكفر والشرك والرياء والذل للناس، خرجوا من فساد الأعمال إلى نور الإيمان والتوحيد والأعمال الصالحات، هؤلاء هم المنتفعون حقًا، وهم الموعودون (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا) والرزق كل إنسان ينتفع به، والرزق في الدنيا أعظمه العلم، ويتبعه كل أنواع الرزق. والرزق في الآخرة ما لا يعد ولا يحصى، "ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ"[3]

---

[3] () أخرجه البخاري (7498).

ثم تختم سورة الطلاق بأمر عظيم يذكَّر فيها العالمين بسبب وجودهم في الحياة، فلا تنسَ الأسرة المسلمة، لا تنس أبدًا أننا لهذا السبب نحن موجودون، ومن لطائف ختم السورة بهذه الآية، أن سورة الطلاق تكرر فيها اسم الجلالة (اللَّهُ)، وضمير اسم الجلالة، والإسناد إلى اسم الجلالة أكثر من ثلاثين مرة، فكانت سورة تعرِّف بالله. فأتت الخاتمة تبين أنكم في كل شأنكم، خاص أو عام، الزوجان اللذان هما أساس المجتمع، أو المجتمع كله، دوركما، وظيفتكما؛ أن تعرفا الله، وأن تجعلا الأيام والليالي سببًا لزيادة معرفة الله. فالله -عزَّ وجلَّ- خلق السماوات والأرض ونزل الأمر القدري والشرعي لأجل هذه الغاية العظيمة، وهي معرفته -عزَّ وجلَّ- (لِتَعْلَمُوا). فالله أراد من خلق السماوات والأرض أن يعلم الناس قدرة الله -عزَّ وجلَّ- على كل شيء، وإحاطة علمه بكل شيء. فلتنظروا في هذه المخلوقات العظيمة وفي تسخيرها وفي تدبير نظامها على طول الدهر. هذه الأفكار التي تشغلون أنفسكم بها، هذه أمور تدل المتأملين على أن مبدعها وخالقها غاية في الحكمة والعظمة، فنستدل على أنه قدير على كل شيء، وأنه عالم بكل شيء، فتدبير هذه المخلوقات بمثل هذا الإتقان المشاهد في نظامها دليل واضح على سعة علم الله وإحاطته بدقائق الأمور، (لِتَعْلَمُوا) واجب عليكم أن تعلموا علمًا يقينيًا تنظرون لما حولكم وتفهمون ما وراءه، فإذا انشغلتم بهذا زدتم إيمانًا، وصلحت أسركم ومجتمعاتكم وكنتم أهل بركات على أنفسكم، وقفتم عند حدود الله وما تعديتموها.

نسأل الله العظيم، رب العرش العظيم أن يجعل الأيام والليالي زيادة في معرفته -عزَّ وجلَّ- ويجعل خروجنا من هذا الشهر المبارك بزيادة إيمان وتقوى، سببًا لصلاح حياتنا ولحسن ختامنا...اللهم آمين.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.